ملخص:

يعالج هذا البحث التغير الاجتماعي–الثقافي في تجمعات فلسطينية مهملة من قبل الدارسين، أي المجتمع الفلسطيني في منطقة الأغوار، والذي يعتمد بشكل رئيسي على الإنتاج الزراعي. قمت في هذا البحث بتقديم تفسير وتحليل منطقي يعتمد على المنهج العلمي لطرق توافق سكان تلك المنطقة التي تخضع لإجراءات إسرائيلية خاصة، وتميِّز هذه المنطقة عن باقي المناطق الفلسطينية، وذلك من خلال الإجابة على التساؤل التالي: كيف يتوافق سكان قرية بردلة الذين يعيشون في ظروف اجتماعية وانتاجية معينة مع الإجراءات الإسرائيلية/الاستعمارية الخاصة التي تستهدفهم؟ فقمت ببحث الشروط التاريخية التي كوّنت التشكيلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في منطقة الأغوار، باعتبار أن تلك التشكيلات هي نتيجة ضرورية فرضها الظرف الاستعماري على السكان الذين يعيشون في هذه المنطقة.

انطلقت في هذا البحث من نظرية مهدي عامل في "نمط الانتاج الكولونيالي". يرى مهدي عامل أن المجتمعات غير الأوروبية اصطدمت في مرحلة تطورها الحديث بالتوسع الاستعماري الأوروبي، والذي كان بدوره ضرورة لمرحلة تطور النظام الرأسمالي فيها. وبالتالي فإن التشكيلات الاجتماعية–الثقافية الفلسطينية هي عبارة عن تشكيلات ناتجة عن العلاقة البنيوية الاستعمارية بين البنية الاجتماعية الرأسمالية مكتملة التكوّن من جهة، وبين البنية الاجتماعية العربية في مرحلة تكونها، من جهة أخرى، وذلك وفق شروط مادية زمانية–مكانية معينة أنتجت تشكيلات اجتماعية–ثقافية متباينة بين التجمعات الفلسطينية، من هذا المنطق النظري انطلقت في هذا البحث إلى دراسة التشكيلات الاجتماعية–الثقافية في قرية بردلة والناتجة بشكل أساسي عن الارتباط التبعي البنيوي مع الاستعمار الصهيوني.

من أجل الإجابة على إشكالية البحث بطريقة علمية مقنعة، قمت باستخدام أسلوب الملاحظة بالمشاركة، وكذلك تقنيات المقابلة المنظمة، كما أنني اعتمدت على بيانات الجهاز المركزي للاحصاء الفلسطيني في سنوات مختلفة. استغرقت عملية البحث الميداني حوالي 20 شهراً ولكن في ففترات متقطعة، وهي الفترة الواقعة بين أواخر شهر أيلول 2011 وأوائل شهر أيار 2013.

توصلت الدراسة إلى أن أهالي القرية يتبنون آليات وطرق تكون معلنة أحياناً ومستترة في أحيان أخرى من أجل الحفاظ على البنية الانتاجية الاقتصادية في القرية، وهي الحافظ على العملية الانتاجية الزراعية بفرعيها النباتي والحيواني، وهذه البنية الانتاجية الزراعية تقع في شروط استعمارية، وذلك باعتبارها طريقة توافق سكان القرية مع سياسات الاستعمار الصهيوني تجاههم.

هذا التوافق الرئيس يستمد ديمومته وعناصره التعزيزية من آليات واستراتيجيات توافق أخرى يستخدمها أهالي القرية من أجل الحفاظ على البنية الانتاجية الزراعية، ومن آليات التوافق هذه القوانين العرفية الخاصة بالمياه والأرض والتعليم، والعلاقة مع السلطة الفلسطينية والكيان الصهيوني، وكذلك العلاقة مع التجار الفلسطينيين والإسرائيليين، كما أن نمط الثقافة التقليدية التي تسيطر على القرية تساهم في الحفاظ على هذا التوافق الرئيس.